آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجريين

"دراسة تحليلية ونقدية في ضوء الكتاب والسنة"

د. أحمد محمد عقلة الزبون*

تاريخ وصول البحث: 2014/4/9م **تاريخ قبول البحث: 2015/9/30م**

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف إلى آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية كرسائل الإمام أبو قاسم الجنيد، والغزالي، وابن عربي. وقد حاولت الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الإيجابيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في المؤلفات والرسائل الصوفية، في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجريين؟
- ما السلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في المؤلفات والرسائل الصوفية، في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجريين؟

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي للآراء التربوية الواردة في المؤلفات والرسائل الصوفية، واستنباط أهم الايجابيات والسلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة فيها، وأشارت نتائج الدراسة إلى ما يلي:

أولاً: تضمنت المؤلفات والرسائل الصوفية، عدة آداب إيجابية تحلى بها الشيخ الصوفي مثل: الأهلية للدعوة والإرشاد، والإذن بالمشيخة والرفق بالمريدين والتواضع لهم، والخبرة بعلم الرياضة الروحية، وأن يكون الشيخ ذا بصيرة وذكاء يمكناه من معرفة صلاحية المريد لسلوك الطريق الصوف، ومخالفة سياسة نفسه، وموافقة قوله لعمله، والعلم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومعرفة خواطر النفس، واتخاذ مجلس للعلم.

ثانياً: اشتملت المؤلفات والرسائل الصوفية على جملة من الآداب الإيجابية تحلى بها المريدون أهمها: احترام المريد لشيخه، والتقوى وأداء ما افترضه الله من فروض وعبادات، والتوبة ورد المظالم، والصدق، وتصحيح العقيدة، وتعلم علوم الشريعة.

ثالثاً: كشفت الدراسة عن عدة سلبيات تتعلق بآداب كل من الشيوخ والمريدين الصوفيين مثل: وجوب اتخاذ الشيخ وعدم قبول العلم إلا من جهته، والمبالغة في طاعة الشيخ وعدم مخالفته في كل ما يأمر به، تقديم الذكر في الأهمية على كثير من العبادات كقراءة القرآن الكريم، والتوبة المشروطة بعدم نسان الذنب ودوام تذكره، وهجران القرآن الكريم، واتخاذهم ألقاب ومسميات لم ترد في الكتاب والسنة النبوية. وتوصي الدراسة القائمين على عملية تصميم المناهج التعليمية وتطويرها في كافة البلدان الإسلامية بضرورة تضمينها بالآداب الإيجابية المتعلقة بالشيوخ والمريدين والمعلمين والمتعلمين في الفكر التربوي الإسلامي، لتنظيم علاقتهم مع معلميهم على وفق المنهج التربوي الإسلامي القويم.

Abstract

The study aimed to identify the morals of Al Sheikh and Al mureed mentioned in the Sofia letters and writings, such as the letters of Al Imam Abu AL Qasim ALJunaid,

* أستاذ مشارك، قسم العلوم التربوية، كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية.

ALGhazali and Ibin Arabi. The study answered the following questions.

- What are the positive sides related to AL Sheik's and AL mureed's morals mentioned in the sofia letters and writing in third to the seventh centuries hijri?
- what are the negative sides related to AL Sheik's and AL Mureed's morals mentioned in the sofia letters and writings in the third to the seventh centuries hijri?

The descriptive and analytical methods were used in the study for the educational options mentioned in the sofiah letters and evritings by which the positive and negative sides related to AL Sheik’s and AL Mureed's morals, were concluded. The findings showed the mentioned Following:

The Sofia writings and letters included lots of positive morals characterized by the sofiah sheikh, such as being qualified for guiding and calling for God, taking permission from the old sheikhs, being kind and humble to AL Muredeen, having good knowledge of spiritual sport, being very smart and having clear vision as sheikh to realize the validity of the Mureed to go on sofiah way by being able to deal correctly with holy Quran and Hadeeth shareef (sunna) and to be among those religious.

The Sofia writings and letters included a collection of positive morals the mureedeen have been characterized by , such as respecting the old mureed, being a real believer and worshiping god, honesty, learning the religion and defending the oppressed ones.

The study indicated some negative sides related to the morals of, AL Sheik’s and AL Mureedeen in sofiah, such as having the knowledge exclusively from the sheikh exaggerating in obeying the sheikh and never violating his orders, considering repeating religions holy Quran verses more important than worshiping God, to repent but still remembering the guilt, leaving Holy Quran, having nicknames not mention in Holy Quran and Prophet (BUH) Sunna. The study recommended the curriculum designers and developers in all Islamic countries to include the positive morals related to the sheiks, mureedeen, Teachers and learners in the Islamic educational thought in the curricula in order to organize their relation with their teachers according to the right Islamic educational method.

المقدمة:

إن الحديث عن آداب الشيخ والمريد في الفكر التربوي الصوفي يأتي في إطار الحديث عن أخلاقيات العالم والمتعلم التي تحكم العلاقة التربوية بين كافة أركان العملية التعليمية في الفكر التربوي الإسلامي، ذلك الفكر الذي يعد مهنة التعليم رسالة وعملاً دينياً قبل أن يكون مهنة أو سيلة للتكسب، ولكي تبقى هذه الرسالة ضمن إطار العمل الديني الخالص لوجه الله تعالى، فقد أحاطها العلماء المسلمون بجملة من الآداب والأخلاق المستندة إلى روح الإسلام وعقيدته السمحة، الأمر الذي ميز العملية التربوية الإسلامية، وأكسبها بعداً ومضموناً أخلاقياً هادفاً إلى إصلاح الإنسان، وتنمية شخصيته في إطار المثل العليا للدين الإسلامي الحنيف. لهذا، فقد أوجب الإسلام على كل عالم أو شيخ يمارس تعليماً هادفاً وكل متعلم أو مريد للعلم الالتزام بآداب واخلاقيات تربوية سامية مستندة إلى ما أمر الله به في كتابه العزيز، وتتفق مع المنهج التربوي الذي قرره مربي البشرية الأول سيدنا محمد ﷺ.

إن من ينعم النظر في مسيرة الفكر التربوي الإسلامي عبر العصور يجد بما لا يدع مجالاً للشك أن آداب وأخلاقيات المعلمين والمتعلمين قد حظيت باهتمام العلماء المسلمين الذين صنفوا لها كتباً ورسائل خاصة ميزت العلاقات التربوية في كافة المدارس الإسلامية سواءً في مدرسة الفقهاء المحدثين ممثلة بعلمائها الذين أفردوا لها رسائل تربوية خاصة كابن سحنون،

والآجري، والقابسي، أو في المدرسة الصوفية ممثلة بابن الجنيد والمحاسبي والغزالي وابن عربي، ومدرسة الفلاسفة، وعلماء العلوم الطبيعية التي يمثلها الفارابي وابن مسكوية، ومدرسة الأصوليين، وعلماء الكلام ممثلة بأبي الحسن البصري.

إن الجهد الذي ستنفرد به هذه الدراسة هو الكشف عن أهم الآداب السلوكية والقيم الأخلاقية لدى إحدى المدارس السابقة، وهي مدرسة الصوفية ممثلة بطائفة من العلماء كابن الجنيد، والغزالي، وابن عربي من خلال عرض أفكارهم التربوية وتحليلها تحليلا علمياً؛ بهدف ابراز الجوانب الإيجابية التي حكمت العلاقة بين العالم والمتعلم، أو بين الشيخ والمريد الصوفيين، وكشف سلبيات هذه العلاقة والمآخذ التربوية على آداب وأخلاقيات الشيوخ والمريدين من خلال محاكمتها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما توصل إليه علماء السلف الصالح الذين تناولوا الفكر الصوفي بالنقد والتحليل كالإمـام ابن تيمية رحمه الله.

إن التعامل مع تلك الآراء التربوية لهؤلاء العلماء الذين يمثلون المدرسة الصوفية تفرضه الحاجة التربوية المتمثلة بما يلي:

- ضرورة تنقية التراث الإسلامي مما علق به من شوائب شوهت بعض معالم النظرية التربوية الإسلامية التي استندت إليها العديد من التطبيقات التربوية الإسلامية عبر سنوات طويلة من عمر أمتنا الإسلامية.
- ضرورة تعزيز الآراء والمبادئ التربوية التي اتفقت مع روح الإسلام السمحة، وانبثقت من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ بغية الاستفادة منها في حاضر ومستقبل العملية التعليمية في المؤسسات التربوية الإسلامية المعاصرة.

ولما كانت المؤلفات والرسائل الصوفية، وما تضمنته من آراء تربوية في مجال تنظيم العلاقة بين الشيخ والمريد جزءاً لايتجزأ من التراث العربي الإسلامي لايمكن تغافله، أو التغاضي عنه، فإن التعامل معه بموضوعية ومنهجية قائمة على التحليل والنقد بعيداً عن التعصب الفكري ضرورة بحثية تفرضها الحاجة الماسة في العودة إلى التراث الإسلامي، والتعامل معه بمنهجية قائمة على الانتقاء والتنقية والتعزيز، والنقل لما هو صالح ومناسب لفكر أمتنا العربية الإسلامية، وتحقيق كل مامن شأنه المواءمة والتوفيق بين الأصالة والمعاصرة، أصالة الإسلام وحاضر ومستقبل الأمة، لهذا تأتي هذه الدراسة بهدف التعرف إلى هذه المصنفات الصوفية لدى طائفة من علماء الصوفية الذين ظهروا خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجريين كالإمام الجنيد، والغزالي، وابن عربي، وتحليل أهم أفكارهم التربوية المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في مصنفاتهم، وتوجيه النقد لها في ضوء التربية الإسلامية الحقة المستندة إلى الكتاب والسنة، وما ورد من أقوال وآراء بعض علماء السلف الصالح كابن تيمية رحمه الله، وذلك من خلال عدة مطالب أهمها ما يلي:

أولاً: التعريف بالصوفية، وأصل اشتقاقها، ومراحل تطورها التاريخي.

ثانياً: ألقاب الشيوخ والمريدين في الفكر التربوي الصوفي.

ثالثاً: الإيجابيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد في الفكر التربوي الصوفي.

رابعاً: السلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد في الفكر التربوي الصوفي.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

إن العلاقة بين المعلم والمتعلم من أبرز مقومات نجاح العملية التربوية والتعليمية في أي مجتمع، وفي كل زمان ومكان، فإذا كانت هذه العلاقة موثقة بعرى الاحترام والمودة والتقدير بين طرفي العملية التعليمية "المعلم والمتعلم"، فإن المخرجات التعليمية ستكون إنجازاً وإبداعاً وتقدماً واكتساب معرفة وتحصيل أخلاق، وغير ذلك من النتاجات التي تسهم في تضامن وعزة المجتمع وتماسكه.

إن المتأمل في عوامل تقدم المجتمع الإسلامي في عصوره الماضية، يجد أن تميز الفكر التربوي ورقي الثقافة العربية الإسلامية، من أقوى عوامل تقدم المجتمع الإسلامي في العصور الذهبية التي كان يقابلها غياهب من الظلام والتخلف ميزت عصور العالم الأوروبي الوسطى.

إن هذا التطور التربوي والتقدم العلمي المستند إلى متانة العلاقة بين العالم والمتعلم، كان بشهادة القاصي والداني سبباً من أسباب كثيرة وقفت وراء التقدم الفكري والرقي الثقافي للأمة الإسلامية في عصورها الإسلامية الغابرة، لعل من أهمها المنظومة القيمية المشتملة على المودة والتقدير والاحترام والطاعة والإخلاص، وغير ذلك من القيم التي ميزت العلاقة بين العالم والمتعلم. لذا كان البحث في الآداب والأخلاق الواجب التحلي بها من قبل العالم والمتعلم من أبرز أوليات المفكر التربوي والفقيه والفيلسوف من خلال تناولها بصورة مباشرة على شكل رسائل أو مصنفات تفصل هذه الآداب تفصيلاً دقيقاً، أو بتضمينها في مؤلفاتهم ومصنفاتهم الفلسفية أو الفقهية أو الأدبية كرسائل طائفة من العلماء الذين ينتمون للمدرسة الصوفية كالأمام الجنيد، والغزالي، وابن عربي.

إن المتدبر بعين الحق والحقيقة للواقع التربوي والتعليمي في بلدان العالم الإسلامي المعاصر، يستنتج أنه واقع هزيل تحكمه القطيعة بين العالم والمتعلم، بحيث أضحى كل طرف من أطراف العملية التعليمية عدواً للآخر، يسيطر عليه الحقد والحسد والقطيعة والهجران. وكي لا يكون هذا الكلام مستنداً للدليل والبرهان القاطع فإن جلد المتعلم، وضربه، وامتهان كرامته، والاستخفاف بمكانة المعلم بضربه، وسجنه، والاستهزاء به هو ما وصل إليه الحال في مؤسسات عالمنا الإسلامي، الأمر الذي جعل مهنة التعليم مهنة لا يتمناها إلا ذو حظ فقير. فمن يستهوية البحث عن الأسباب، وينظر بعين المحلل للواقع يجد أن هناك عدة عوامل وقفت خلف هذا الواقع التربوي الهزيل أولها: هجران المنهج التربوي الإسلامي الصحيح ومعاداته، الذي أقره رب العزة في القرآن الكريم، وأمر به رسولنا الكريم ﷺ، وسار عليه سلفنا الصالح سنوات طويلة أنتجت نبوغاً وتميزاً ورقيّاً علمياً شهد به القاصي والداني من سكان المعمورة، وثاني هذه العوامل انتشار عدد من الأفكار التربوية الغريبة عن النهج الإسلامي القويم، جاءت نتيجة الانفتاح غير المضبوط على الثقافات والفلسفات الأخرى التي كانت سائدة في البلدان المحيطة ببلدان العالم الإسلامي، فشوهت معالم النظرية التربوية الإسلامية بوجه عام، وأثرت في طبيعة العلاقة بين العالم والمتعلم في مؤسسات التعليم الإسلامي كافة، فمن لدن هذا الواقع التربوي برزت مشكلة هذه الدراسة، بهدف الوقوف على طبيعة العلاقة التي سار على هديها الشيخ والمريد في الفكر الصوفي، وتحليل تلك الأفكار ونقدها التي تضمنتها رسائل ومؤلفات طائفة من أعلام الفكر الصوفي كالجنيد والغزالي وابن عربي، كمحاولة لتنقية التراث التربوي الإسلامي مما علق به من أفكار غريبة عن النهج التربوي السليم، من خلال عرض دقيق لتلك الأفكار، ومحاكمتها في ضوء التربية الإسلامية المستندة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، وأقوال وممارسات العلماء والمسلمين من السلف الصالح كشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من العلماء؛ بغية الاستفادة من أصالة التجربة التربوية الإسلامية وتوظيفها في خدمة الواقع التربوي الإسلامي المعاصر. وعليه فإن مشكلة الدراسة تتحدد بـ "آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين". لهذا حاولت الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

السؤال الأول: ما المقصود بالصوفية؟

السؤال الثاني: ما ألقاب الشيوخ والمريدين الصوفيين؟

السؤال الثالث: ما الإيجابيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين؟

السؤال الرابع: ما السلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين؟

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- التعريف بالصوفية من حيث مفهومها، وأنواعها، ومراحل تطورها.
- الوقوف على ألقاب الشيوخ والمريدين الصوفيين.
- تعزيز الايجابيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية لدى طائفة من العلماء الصوفيين كالجنيد، والغزالي، وابن عربي.
- الكشف عن أهم السلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية لدى طائفة من العلماء الصوفيين كالجنيد، والغزالي، وابن عربي.
- تعزيز الصلة بين الماضي والحاضر، وتوثيق الروابط بينهما خاصة في ظل ما ينادى به اليوم من سعي للجميع بين الأصالة والمعاصرة.
- السعي للمشاركة في تنقية ما علق بتاريخ أمتنا من شوائب مست مكانتها وتاريخها العريق، وذلك من خلال ما يقدمه البحث من نقد وتحليل لآداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية، في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين.

أهمية الدراسة:

تتضح أهمية الدراسة فيما يلي:

أولاً: كونها محاولة للجمع والمواءمة بين الأصالة والمعاصرة –أصالة الفكر التربوي الإسلامي وعلاقتها بالفكر التربوي المعاصر–، وذلك من خلال الوقوف على آداب الشيخ والمريد في الفكر الصوفي خلال القرون الإسلامية الأولى.

ثانياً: كونها من الدراسات التربوية الإسلامية الأولى، التي أخذت على عاتقها العودة إلى الفكر التربوي الصوفي، وتحليله تحليلا علميا قائما على المنهجية العلمية الحديثة؛ بغية الاستفادة من تجارب السابقين وآرائهم التربوية، وأخذ الدروس والعبر منها، ومحاولة توظيفها في خدمة حاضر ومستقبل العملية التعليمية.

ثالثاً: إن الفترة الزمنية الإسلامية التي تمثلها الدراسة تعد من أبرز القضايا التي تزيد من أهميتها، فهي تتناول دراسة موضوع آداب الشيخ والمريد في الفكر التربوي الصوفي بدءاً من القرن الثالث، وحتى القرن السابع الهجريين، تلك الفترة التي كانت تعبر عن الرقي الفكري والتقدم الثقافي في كافة جوانب الحياة الإسلامية خلال خمسة قرون.

مصطلحات الدراسة:

- **آداب الشيخ والمريد:** هي مجموعة الآراء التربوية المتعلقة بقواعد السلوك والأخلاق الخاصة بالشيخ والمريد الصوفيين التي أقرها أعلام الفكر الصوفي في مؤلفاتهم ورسائلهم.

- **الصوفية:** تصورات فكرية دينية ظهرت في بداية الأمر على شكل نزعات فردية تدعو إلى العبادة والتقرب إلى الله،

والزهد في الحياة، ثم تطورت بعد ذلك حتى صارت طرقاً وحركات منظمة ذات طابع فكري خاص أطلق عليه اسم التصوف.

- **الرسائل الصوفية:** هي مجموعة الأفكار التي تضمنتها الكتابات التربوية التي جاءت عن طريق مؤلفات، أو وصايا، أو إشارات متناثرة في مواضيع شتى أنشأها مجموعة من المفكرين الصوفيين.
- **الشيخ:** هو لقب من ألقاب العلماء الصوفيين الذين تولوا عملية التعليم عند الصوفيين، ولا ينال هذا اللقب العلمي إلا بعد بلوغه مرتبة فكرية وروحية متقدمة.
- **المريد:** هو لقب من ألقاب طلبة العلم عند الصوفية، يتم اختياره من قبل الشيوخ الصوفيين بعد اجتيازه اختبارات تثبت صلاحيته للتعلم، وتؤكد استعداده لسلوك الطريق الصوفي.

حدود الدراسة:

- تتحدد الدراسة باستنباط آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية التي ظهرت في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين. وهي على النحو الآتي:

• الرسائل والمؤلفات الصوفية التي ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ممثلة برسائل الإمام أبو قاسم الجنيد.
• الرسائل والمؤلفات الصوفية التي ظهرت خلال القرن الخامس الهجري ممثلة برسائل أبي حامد الغزالي ومؤلفاته مثل: رسالة روضة الطالبين وعمدة السالكين، خلاصة التصانيف، وكتاب إحياء علوم الدين، وكتاب الأربعين في أصول الدين.
• الرسائل والمؤلفات الصوفية التي ظهرت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين مثل: رسالة نفائس العرفان، والكنه فيما لا بد للمريد منه، والحكمة الحاتمية، ومواقع النجوم، وكتاب الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط، كتاب الفتوحات المكية.

- تحددت الدراسة بالاستشهاد بما ورد عن الإمام ابن تيمية من أقوال نقد فيها الفكر الصوفي ومنهج الصوفيين في التربية والتعليم.

منهجية الدراسة:

بما أن هذه الدراسة تتناول آداب الشيخ والمريد المتضمنة في الرسائل والمؤلفات الصوفية، التي ظهرت في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين، فإن المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج المناسب لهذه الدراسة، من خلال وصف وتحليل أهم آداب الشيخ والمريد، كما وردت في الرسائل والمؤلفات الصوفية كرسائل الإمام الجنيد، والغزالي، وابن عربي.

إجراءات الدراسة:

اتبعت الدراسة عدة إجراءات أهمها ما يلي:

- تحديد مصادر الدراسة المتمثلة بالمراجع الأولية والثانوية.

- استنباط أهم آداب الشيخ والمريد الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية وتحليلها، التي ظهرت خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين، ونقدها في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال علماء السلف الصالح كابن تيمية -رحمه الله تعالى-.

الدراسات السابقة:

تناول بعض الباحثين في مجال الفكر الإسلامي، موضوع التصوف من حيث مفهومه، ونشأته، ومراحل تطوره، وقواعد التربية التي أقرها أعلام الفكر الصوفي، وعلى الرغم من تقارب موضوعات الدراسات السابقة من موضوع الدراسة الحالية، إلا أن الدراسات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد في الفكر الصوفي تكاد تكون قليلة ونادرة. وقد تم تناول الدراسات السابقة مرتبة وفق السياق الزمني على النحو الآتي:

قام عون[1] بإجراء دراسة هدفت إلى الوقوف على بعض سمات التصوف الإسلامي، ومصادره، وبيان أهم المقامات، كالتوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا، وتفصيل بعض الأحوال كالمحبة والشوق والأنس والهيبة والقرب والحياء والصحو والفناء والبقاء، وتتبع أفكار أهم رجالات الفكر الصوفي كالغزالي، وابن عربي. وكشفت الدراسة عن ضرورة الشيخ للمريد، ووجوب تحليه ببعض الآداب اللازمة للسير في الطريق الصوفي، مثل الزهد، وتقليل الطعام، والخلوة، والذكر، والانقطاع عن الخلق، وطاعة الشيخ واحترامه.

وأجرى الطويل[2] دراسة حول التراث العربي الإسلامي، أفرد فيها فصلا خاصاً للتصوف تناول فيه البحث في حقيقة التصوف، وتصوف الفلسفة الإسلامية، وخصائص التصوف الإسلامي وأدواره ومصادره. أظهرت الدراسة أن التصوف الإسلامي شأنه شأن التصوف الهندي أو الفارسي أو غيره، نشأ بعيداً عن المؤثرات الأجنبية، فزهاد المسلمين وصوفيتهم الأولون كانوا قد توصلوا بالرياضات والمجاهدات إلى تصفية نفوسهم، وكان قدوتهم في هذا النبي ﷺ وصحابته الكرام.

وتناول قاسم[3] في دراسة له المذاهب الصوفية ومدارسها، هدفت إلى الكشف عن الفلسفة التربوية الصوفية التي أخذ بها فقهاء الصوفية في تربية طلابهم الذين لعبوا دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي. واشتملت الدراسة على محورين مهمين أولهما: المحور التاريخي من خلال تتبع عوامل قيام المدارس الصوفية وتطورها تاريخياً، وثانيهما المحور الفلسفي الذي يقوم على تتبع التصور الإسلامي للفكر التربوي الصوفي من خلال التركيز على الزهد، والحب الإلهي، والتوبة، والولاية، والذكر، والإخلاص.

وحول أدب السلوك عند الصوفيين أجرى أبو راس[4] دراسة هدفت التعرف إلى أدب السلوك والعرفان في الرسالة الصوفية عند ابن عربي وابن سبعين. كشفت الدراسة في فصلها الثاني المتعلق بالسالك والإرادة وآداب المريدين والمرشدين أن من أبرز آداب المريد التسليم والصدق والصفاء، أما سمات المرشد فهي إدراك مستوى المريد، ومدى استعداده للتلقي، وأن يكون حسن الخلق مع أهل الإرادة والطلب.

وأعدّ الخطيب[5] دراسة حول أعلام التصوف الإسلامي هدفت إلى دراسة بعض شيوخ التصوف الإسلامي، وتسجيل مآثرهم وأقوالهم في شتى المجالات والمقامات، ومن أهم ما تناولته الدراسة من أعلام التصوف الإسلامي إبراهيم بن أدهم، وأبو تراب النخشبي، والفضيل بن عياض، والسهروردي، وبشير بن الحارث، وحاتم الأصم، وسهل التستري، وشفيق البلخي، ويحيى بن معاذ.

وحول المنهاج التربوي والتعليمي الصوفي أجرى داوود[6] دراسة هدفت التعرف إلى المنهاج التربوي والتعليمي عند الصوفيين، تناول فيها المنهج الصوفي في التربية والمشتمل على المنهج الاختياري، والمنهج الاضطراري، وطرائق المعرفة

عند الصوفيين. أظهرت الدراسة أن للصوفية دوراً في نشر العلم من خلال إنشائهم للزوايا التي استخدموها لتحفيظ أبناء المسلمين القرآن الكريم، وتعليمهم أحكام العبادات.

وقام للوه[7] بدراسة حول الفكر التربوي الصوفي هدفت التعرف إلى ما تضمنه الفكر الصوفي في الإسلام، من فلسفة

للتربية وأهدافها، والمنهاج التربوي وأساليبه، والعلاقات بين الشيخ والمربي والمريد والمتربي، والأدوار التربوية للمؤسسات الصوفية. وكشفت الدراسة أن العلاقة التربوية في التصوف الإسلامي بين المعلم والطالب علاقة متميزة، تقوم على المحبة والاحترام والرعاية؛ نظراً لما يحظى به الشيخ الصوفي من مكانة رفيعة أهلته لأن يكون نائباً عن الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى.

وتناول قويدري[8] الفكر التربوي الصوفي في دراسة عنوانها "قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي" استعرض فيها أهم الأفكار التربوية لدى طائفة من أعلام الفكر الصوفي كالحارث المحاسيبي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو طالب المكي، وأبو القاسم القشيري، وأبو حامد الغزالي، وعبدالقادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، ومحيي الدين بن عربي، وأبو مدين شعيب. أظهرت الدراسة أن هؤلاء الأعلام أرسوا الدعائم الكبرى للمنهج التربوي الصوفي حيث جمعوا بين الفقه والأحوال الباطنية، وتكلموا في القضايا المتعلقة بالأحوال والمقامات، وأثاروا كثيراً من المباحث النفسية والأخلاقية التي ستصبح فيما بعد مرجعاً أساسياً لمن سيأتي بعدهم.

ملخص الدراسات السابقة، وموقع الدراسة الحالية منها:

تبين من خلال العرض السابق للدراسات ذات الصلة بموضوع الدراسة الحالية أن بعضها تناول التصوف من حيث مفهومه، ونشأته، ومراحل تطوره وأعلامه، وذهب بعضها الآخر إلى دراسة الفكر التربوي والتعليمي عند الصوفية، واهتمت بعض الدراسات الأخرى بدراسة الصوفية كجزء هام من التراث العربي والإسلامي. وعلى الرغم من أن الدراسات السابقة كانت بمثابة المورد العذب الذي نهل منه الباحث زاده الفكري، وقوته العلمي، إلا أن هذه الدراسة تميزت عنها بالأمور الآتية:

- أنها تناولت موضوعاً من الموضوعات التي تشهد اهتماماً متزايدا في الفكر التربوي المعاصر، وهو موضوع العلاقة بين المعلم والمتعلم، وما ينبغي أن يتحلى به كل من المعلم والمتعلم أو الشيخ ومريده من طلبة العلم، وهو من المواضيع المهمة الذي تم تناوله من قبل الدراسات السابقة بصورة عامة، فلم يكن هناك دراسة إسلامية واحدة حسب اطلاع الباحث تناولت موضوع آداب الشيخ والمريد بشكل شمولي ومنظم، وإنما جاء ذلك بطريقة مبثوثة وغير منظمة، فكان هذا هو الجهد الذي تميزت به هذه الدراسة، فقد أخذت على عاتقها تنظيم الأفكار المبثوثة هنا وهناك بين ثنايا رسائل أعلام الفكر الصوفي ومؤلفاتهم .
- أنها تناولت موضوع آداب الشيخ والمريد خلال فترة إسلامية زاهرة، جمعت القرون الخمسة الهجرية الأولى، وهي الفترة التي كان فيها الفكر التربوي الإسلامي في أوج قوته وازدهاره، ظهر ذلك من خلال الرسائل والمؤلفات التي ضمت عددا من المبادئ والأفكار والآراء التي كان لها بالغ الأثر في تقدم الحياة الفكرية في العالم الإسلامي.

المطلب الأول: الصوفية – مفهومها وأصل اشتقاقها – مراحل تطورها التاريخي:

1) **مفهوم التصوف وأصل اشتقاقه:**

أجاب الكلاباذي عن سبب تسمية الصوفية بهذا الاسم فقال: سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها، فالصوفي من صفا قلبه لله، وصفت لله معاملته فصفت له من الله ﷻ كرامته[9]. وذهب ابن الجوزي[10] إلى القول بأن التصوف منسوب إلى أهل الصّفة وهم قوم فقراء كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ، ليس لهم مال ولا أهل فبنيت لهم صّفة في مسجد رسول الله ﷺ وكان الرسول ﷺ يأتيهم فيقول لهم: السلام عليكم يا أهل الصّفة[11]. وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية عن الصوفية، وعن سبب تسميتهم بهذا الاسم فأجاب: أما لفظ الصوفية فلم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقيل أنه نسبة إلى أهل الصفة وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل صُفِّيّ، وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وهو أيضاً غلط؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ، وقيل نسبة إلى الصفوة من خلق الله، وهو غلط؛ لانه لو كان كذلك لقيل: صفوي، وقيل نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القريب، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين أكثر من النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى؛ لأن غالب من تكلم باسم الصوفي لايعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً لقبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام، وقيل –وهو المعروف– إنه نسبة إلى لبس الصوف[12].

والراجح من هذه الأقوال نسبة التصوف إلى الصوف، لما فيه من موافقة لتعريف التصوف من جهة اللغة، ولأنه يتفق مع الصفات التي كان عليها من عرف بالتصوف من السابقين الأولين كالتقشف، والانقطاع عن الدنيا، وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء من غير المتصوفين كابن خلدون الذي عرف التصوف بقوله: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"[13].

2) **نشأة الصوفية وتطورها التاريخي:**

أطلق المؤرخون المسلمون على النشأة الأولى للصوفية مرحلة التكوين، وهي تمتد من القرن الأول وحتى منتصف القرن الثاني الهجري، وهي المرحلة التي اتسم فيها السلوك الصوفي بالزهد والتقشف وغير ذلك من السلوكيات، التي كان يقوم بها أصحابها في بداية الأمر وبالتحديد منذ الصدر الأول للإسلام دون أن يعرفوا باسم الصوفية. فيذكر نيكسون الوارد في التفتازاني[14] أن الزهد يعد من أقدم أنواع التصوف الإسلامي، ويصف الزهاد بالصوفيين الأوليين، وفي العصر المبكر –أي في القرنين الأول والثاني الهجريين– لا يستطيع أحد أن يفصل بين الزهد والتصوف، أو أن يميز بينهما، بل إن كثيراً من المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الصوفية، حتى القرن الثالث الذي ظهرت فيه التفرقة بين الزهد والتصوف بشكل واضح وجلي، لم يكونوا في الحقيقة إلا زهاداً على حظ قليل من التصوف.

إن ما كان يقوم به أوائل المسلمين خلال القرنين الهجريين الأول والثاني من زهد وتقشف وتعبد وقيام ليل وصيام نهار ومن شد للحجارة على بطونهم لتربية نفوسهم وأرواحهم، هو ما اتفق مع جوهر السلوك الصوفي الذي ظهر فيما بعد، وأكد عليه عدد من الذين اشتهروا بلقب التصوف المرتكز على الزهد والتفاني في طاعة الله تعالى، مثل الإمام الحسن البصري (ت 110هـ)، ورابعة العدوية (ت 185).

وغلب على السلوك الصوفي في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث الهجري وحتى القرن الرابع الهجري، الطابع الأخلاقي النفسي الذي يهدف إلى تنظيم العلاقة بين المريدين والمشايخ الصوفيين؛ إذ أطلق المؤرخون على التصوف في هذه المرحلة، التصوف السني الذي يمثله في هذه الدراسة الإمام أبو القاسم الجنيد (ت 297هـ)، الذي كان يرى أن التصوف يقوم على اجتناب كل خلق دنيء، واستعمال كل خلق سني، وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت(15). وأكد الأمام الجنيد على هذا الطابع الأخلاقي للسلوك الصوفي عندما سئل عن التصوف فقال: "التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة(16).

أما المرحلة الثالثة من مراحل تطور الفكر الصوفي، فيمثلها القرن الخامس الهجري، فقد غلب الطابع الروحي على السلوك الصوفي، من خلال العبادة والخلوة والتقرب إلى الله تعالى، وظهر في هذا القرن مجموعة من العلماء المتصوفين، أرسوا قواعد التصوف وحمايته من هجمات بعض الفقهاء المتطرفين، وإصلاحه بسبب الإنحرافات التي أصابته(17). ومن أهم العلماء الذين ظهروا في هذه المرحلة وتناولته الدراسة بالبحث الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، الذي كان له دور بارز في سيطرة التصوف على الحياة الروحية في الإسلام، بعد أن عزف عنه الكثيرون، وعدوه مروقاً وخروجاً على تعاليم الإسلام؛ إذ كان تصوفه سنياً يقوم على تعاليم الكتاب والسنة، وينفر من مناهج العقل التي اتبعها الفلاسفة والمتكلمون، وكان التصوف مجرد طريق للعبادة والخلوة والتقرب إلى الله، ولكنه كان على يديه إلى جانب هذا طريقاً إلى المعرفة اليقينية، عن طريق الكشف الصوفي الذي يتحقق بعد تصفية النفس وتجريدها من علائق البدن وسبيلاً إلى السعادة الحقيقية(18).

واتخذ التصوف في القرن السادس والسابع الهجريين طابعاً آخر يختلف عن التصوف السني الذي ميز تصوف الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري، وهو التصوف ذو الطابع الفلسفي، وهو تصوف يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنه مصطلحاً فلسفياً استمدوه من مصادر متعددة. ومن أهم علماء الصوفية في القرنين السادس والسابع الهجريين الذين تناولتهم هذه الدراسة محيي الدين بن عربي (560هـ)، الذي أرسى قواعد الفكر الصوفي في تلك الفترة الزمنية من خلال مصنفاته ورسائله الصوفية.

المطلب الثاني: ألقاب الشيوخ والمريدين الصوفيين:

أورد علماء الصوفية في مصنفاتهم ومؤلفاتهم عدة ألقاب للشيوخ والمريدين الصوفيين أهمها مايلي:

1) **القطب والغوث:**

من ألقاب الشيوخ الصوفيين القطب أو الغوث، فقد استعمل ابن عربي لفظة "قطب": نكرة مضافة، وهي في هذه الحال تكتسب معناها وشخصها من إضافتها. والقطب هنا يؤخذ بالمعنى اللغوي الهندسي فيكون: كل شخص يدور عليه أمر من الأمور. أو مقام من المقامات أو حال من الأحوال. مثلا الزهد والتوكل وكل ما توصل إلى تعداده المتصوفة من المقامات والأحوال، لكل منها قطب تدور عليه. فللزهد قطب ... والقطب بهذا المعنى يقبل الكثرة والتعدد في الزمان الواحد، ولا يقبلها في الأمر الواحد (الزهد – التوكل). كما أنه لا يطلق عليه مترادفات القطب التي أشرنا إليها أعلاه(19).

ويوضح ابن عربي الوارد في الحكيم(20) المقصود بالقطب بقوله: "ما أعني الأقطاب الذين لا يكون في كل عصر إلا واحدا، وإنما كل من دار عليه أمر جماعة من الناس في إقليم وجهة: الأبدال في الأقاليم السبعة، لكل إقليم بدل هو

قطب ذلك الإقليم، وكالأوتاد الأربعة، لهم أربع جهات فحفظها الله بهم، وكذلك أصحاب المقامات فلا بد للزهاد من قطب يكون المدار عليه في الزهد في أهل زمانه، وكذلك في التوكل والمحبة والمعرفة وسائر المقامات والأحوال، لا بد في كل صنف من أربابها من قطب يدور عليه ذلك المقام، ولقد أطلعني الله تعالى على قطب المتوكلين، فرأيت التوكل يدور عليه كأنه الرحى حين تدور على قطبها.

ويذكر الجرجاني[21] أن القطب يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضوع نظر الله في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات الغير المجهولة، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وهو على قلب إسرافيل من حيث حصته الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس، لا من حيث إنسانيته، وحكم جبرائيل فيه كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية، وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها، وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الدافعة فيها.

من خلال ماتقدم فإن الباحث يرى أن القطب لقب تلقب به الشيخ الصوفي، وله عدة مسميات مرادفة له كالغوث والخليفة، وقطب الزمان، وقطب الوقت، وواحد الزمان، وشخص الوقت، وصاحب الوقت، وعبدالله، والحجاب الأعلى، ومرآة الحق، وغيرها من الألفاظ التي تدل على عقيدة واحدة عند المتصوفة وهي عقيدة القطبية التي تستلزم وجود قطب متحكم في الكون.

2) الأوتاد:

من ألقاب الأولياء عند الصوفيين الأوتاد وعددهم أربعة، وهم كما يزعمون يثبت بهم الإيمان في قلوب الناس كما تثبت الجبال الأرض، وسموا أوتاداً تشبيهاً لهم بالجبال قال تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾[النبأ: 7]. وذهب الجرجاني[22] إلى القول إن الأوتاد أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة أركان من العالم شرق وغرب وشمال وجنوب. فمن خلال الرجوع إلى المؤلفات والمصنفات الصوفية فقد تبين للباحث أن الأوتاد لقب تلقب به الأولياء الصوفيين الذين كانوا يثبتون الإيمان في قلوب الناس كما تثبت الجبال الأرض، فهم بزعمهم هذا يجانبون الحق والصواب؛ لأنهم ينطلقون من فرض مفاده أن الإيمان لايثبته إلا الشيوخ، والحق أن الإيمان أمر استقر في القلب لايثبته إلا التقوى والعمل الصالح.

3) الأبدال:

لقب يطلق عند الصوفية على من يفوض إليه أمر أتباعه بعد موته، أو لقب يطلقه الصوفيون على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم[23]. ويرى الجرجاني[24] أن البدلاء سبعة رجال: من سافر من موضع وترك جسداً على صورته حيا بحياته ظاهراً بأعمال أصله بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، وذلك هو البدل لا غير، وهو في تلبّسه بالأجساد والصور على صورته على قلب إبراهيم عليه السلام.

ويرى الباحث أن الأبدال من مراتب الأولياء الصوفيين، وهم بحسب زعمهم رجال الغيب ولايعرفهم أحد، ويعرفون بالرقباء، ولهم كرامات خاصة بهم، وكانوا يدعون صلاحهم وعدم خلو الدنيا منهم، وأن من يموت منهم يخلفه بديله، وعددهم أربعون ويقيمون في الشام، واستدل الصوفيون على وجود هؤلاء الأبدال بالحديث الذي يرويه الإمام علي عن رسول الله ﷺ فقد ذُكِرَ أَهْلُ الشَّامِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْعِرَاقِ، فَقَالُوا: الْعَنْهُمْ يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَقُولُ: " الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلًا، يُسْقَى بِهِمْ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمْ الْعَذَابُ" ابن حنبل، المسند، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (1527)".

4) **النجباء:**

يعرف الجرجاني[25] النجباء بأنهم الأربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، وهي من حيث الجملة كل حادث لا تفي القوة البشرية بحمله، وذلك لاختصاصهم بموفور الشفقة والرحمة الفطرية فلا يتصرفون إلا في حق الغير؛ إذ لا مزية لهم في ترقيتهم إلا من هذا الباب.

ويذهب الباحث إلى القول بأن النجباء من ألقاب الصوفية، وهم أقل من البدلاء، ويزعم الصوفيون أن البدلاء يحملون أثقال الخلق التي تنوء البشرية عن حملها، ويتصفون بحسب زعمهم بصفات تؤهلهم للحمل كالشفقة والرحمة الفطرية، واختلف المتصوفة في عددهم فبعضهم قال: أنهم ثمانية في كل زمان، لا يزيدون ولاينقصون، وبعضهم قال: إنهم أربعون نجيباً.

5) **النقباء:**

يرى الصوفيون أن النقباء أول درجات الترقي الصوفي في علم الحقيقة بعد سلوك الطريق الصوفي وهم كما يزعمون من مراتب الخواص، وعددهم ثلاث مائة، مهمتهم الإشراف على مواطن الناس، واستخراج خفايا الضمائر، وهم ثلاثة أنواع نفوس علوية وهي الحقائق الأمرية، ونفوس سفلية وهي الخليقة، ونفوس وسطية وهي الحقائق الإنسانية[26]. فمن خلال ماتقدم من تعريف للنقباء الصوفيين فإننا نجد أن المتصوفة تجاوزوا الحق في زعمهم أنهم يعلمون خفايا النفوس، وما تضمره الضمائر، فهم بهذا استأثروا بعلم الله وخصوا أنفسهم بمعرفة ما لايعرفه إلا الله الذي يعلم وحده خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

المطلب الثالث: الإيجابيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد الواردة في المؤلفات والرسائل الصوفية:

أورد أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم الصوفية جملة من الآداب المتعلقة بسلوك الشيخ والمريد الصوفيين، وهي على النحو الآتي:

أولاً: آداب الشيخ الصوفي:

1) **الأهلية للدعوة والإرشاد والإذن بالمشيخة:**

إن من أبرز آداب الشيخ الصوفي التي أوردها أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم، أن يكون صاحب علم شرعي يؤهله للتصدر للدعوة والإرشاد وعقد مجالس العلم والفقه، وذلك بأن يحصل على إذن بالمشيخة من شيخه الذي تربى على يديه ونهل عنه العلم، أو أن يشهد له طائفة من الناس العارفين بأهليته لذلك، وذهب كثير من أعلام الفكر الصوفي إلى ضرورة أهلية الشيخ الصوفي للتصدر لمجالس العلم كالإمام الجنيد الذي تردد كثيراً في التصدر للدعوة، ولم يفعل ذلك حتى أشار عليه جماعة من أهل العلم بامتلاكه العلم الذي يؤهله للدعوة والإرشاد فيقول: "ما تكلمت على الناس حتى أشار إلي وعلي (ثلاثون) من البدلاء، إنك تصلح أن تدعو إلى الله ﷺ. وقال الإمام الجنيد للإمام الشبلي: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ. وقال بعض الكبار للإمام

الجنيد وهو يتكلم على الناس، يا أبا القاسم إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل، فقام الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرين، ثم خرج فقال: "لولا أنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: "في آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم ما خرجت إليكم[27]. ولعل جهل بعض المشايخ الصوفيين وعدم أهليتهم للدعوة والإرشاد، هو الذي جعلهم ينزلون من أعين الناس وقلت مهابتهم وحرمتهم بنظر مريديهم حتى أصبحوا موضع استهزاء وسخرية من قبل الناس الذين يجالسونهم، وهذا مادفع ابن عربي إلى التأسف على مكانة الشيخ الصوفي التي قلّت بسبب جهل بعض الشيوخ وعدم درايتهم وعلمهم وغير ذلك من عوامل الاستخفاف التي دفعت ابن عربي إلى أن يأسف لحالهم شعراً فقال:

جهلــت مقاديـــــر الشيــــوخ   أهـــل المشاهـد والرســـوخ

واستنـــزلـــــت ألفـاظهـــــم   جهلاً وكان لها الشموخ[28]

وشبه ابن عربي الشيخ الصوفي الجاهل بالعلم الشرعي بالطبيب المتطفل على مهنة الطب الذي يعم ضرره ليقتل الصحيح والعليل ففي ذلك يقول: "فمهما نقصهم شيء مما يحتاجون إليه في التربية فلا يحل له أن يقعد له في منصة الشيخوخة فإنه يفسد أكثر مما يصلح ويفتن، كالمتطبب يعل الصحيح ويقتل المريض فإذا انتهى لهذا الحد فهو شيخ في طريق الله يجب على كل مريد حرمته"[29].

وعاب الغزالي جهل بعض مشايخ زمانه، الذين دعوا الناس إلى اللهو واللغو، وهم كثر، ونادراً ما يجد الإنسان شيخاً ورعاً زاهداً مشتهرا بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة فيقول: "فالاقتداء بمثل هذا المرشد صاحب السيرة الحسنة والأخلاق المحمودة هو عين الصواب، والظفر بمثله نادراً لا سيما في هذا الزمان، فإنه كثر فيه من يدعي الإرشاد وهو في الحقيقة يدعو الناس إلى اللهو واللغو، بل ادعى كثير من الملحدين الإرشاد بمخالفة الشريعة. وبسبب غلبة هؤلاء المدعين اختفى المرشدون الحقيقيون في أركان الزوايا. ومن شروط الشيخ المرشد عند الغزالي أن يكون عالما، وليس كل عالم يصلح للإرشاد، بل لابد أن يكون عالماً له أهلية صناعة الإرشاد[30].

ويرى الباحث أن الأذن بالمشيخة عند الصوفيين يشبه نظام الإجازة التي كان يمنحها الشيوخ المسلمون لطلابهم، فيجيزون لهم بها الفتيا والتدريس، وتعني الإجازة في اللغة إعطاء الإذن، ولهذا المعنى أشار الفيرزوبادي بقوله: "أجاز له سوغ له" والإجازة في الاصطلاح هي رخصة تتضمن المادة العلمية الصادرة من أجلها، يمنحها الشيخ لمن يبيح له رواية المادة المذكورة فيها عنه، وتكون الإجازة بهذا المعنى طريقة من طرق نقل الحديث وتحمله من الشيخ إلى من أباح له نقل الحديث عنه[31]. ومن أبرز أنواع الإجازة التي عرفها المربون المسلمون الأوائل الإجازة بالفتيا والتدريس التي كانت تعطى للمتعلم الذي وصل إلى مستوى علمي يؤهله لإصدار الفتاوى والتدريس، وبمقتضى هذه الشهادة يأذن له شيخه في أن يفتي وأن يدرس ويطلق على الشخص الذي يظفر بالإجازة العلمية المجاز [32].

2) الرفق بالمريدين والتواضع لهم:

الرفق بالمريدين والتواضع لهم من أهم الآداب التي أكد عليها أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم كالإمام الجنيد، الذي أشار إلى أهمية اقتران العلم بالتواضع حتى يكون مؤنساً للمريدين لا موحشاً لهم، فقال موصياً الشيخ بمريده: "إذا لقيت الفقير فألقه بالرفق، ولا تلقه بالعلم فإن الرفق يؤنسه، والعلم يوحشه، فقلت يا أبا القاسم كيف يكون فقير يوحشه العلم، فقال: نعم الفقير إذا كان صادقاً في فقره، فطرحت عليه العلم ذاب كما يذوب الرصاص في النار[33]. والرفق بالمريدين والتواضع لهم والعطف عليهم هو أهم تضمنته رسالة الإمام الجنيد إلى صديقه الشيخ أبي يعقوب يوسف بن

الحسين الرازي إذ قال ما مفاده: "فاعدل –رضي الله عنك– إلى المريدين بهمك، وأقبل عليهم بوجهك، وانصرف إليهم بحجتك، واعطف عليهم بفضلك، وأثر على غيرهم بدلالتك وجميل دعايتك، وابذل لهم منافعهم من علمك ومكين معرفتك، وكن معهم في ليلك ونهارك، وخصهم بما عاد به عليك ولك، فذلك حق القوم منك وحظهم بما وجب لهم عليك. أما سمعت الله جل ثناؤه وذكره وهو يقول لأعظم خلقه عنده قدراً، وأعلاهم لديه منزلاً[(34)]. قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾[الكهف: 28]".

وأكد الغزالي على ضرورة اتصاف الشيخ المربي بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة، المتضمنة للصبر والشكر والتوكل واليقين والطمأنينة والسخاء والقناعة والحلم والتواضع والمعرفة والصدق والوفاء والحياء والسكون والتأنّ[(35)].

ومن خلال ما تقدم فإن الباحث يرى أن الرفق بالمتعلمين والحنو عليهم من أهم آداب العالم التي تحلى بها العلماء المسلمون مع تلاميذهم، فقد كان العالم المسلم يعامل من وفد إليه طالباً للعلم معاملة تتسم بالود والحنان، وكان يجري طالب العلم مجرى بنيه في الشفقة والاهتمام بمصالحه، والصبر على جفائه وسوء أدبه، وكان يلتمس له العذر لكل مايصدر عنه من سوء أدب وجفاء، تيقناً منهم بأن الإنسان مخلوق تعترضه النقائص. وزيادة في التزامهم بهذا الأدب التربوي مع تلاميذهم أنهم كانوا يحبون لتلاميذهم مايحبونه لأنفسهم من الخير ويكرهون لهم مايكرهونه لأنفسهم، فقد قيل لابْنِ عَبَّاسٍ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: "جَلِيسِي الَّذِي يَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيَّ، لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ لا يَقَعَ الذُّبَابُ عَلَى وَجْهِهِ لَفَعَلْتُ" الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، باب ذكر أخلاق الفقيه وآدابه، حديث رقم (498)"[(36)]. ومن مظاهر الرحمة والشفقة على المتعلمين في الفكر التربوي الإسلامي الذي يسير وفقاً لهدي الرسول ﷺ عدم تعاظم العالم على المتعلمين والتواضع واللين معهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[الحجر: 88].

3) **الخبرة بعلم الرياضة الروحية** بأن يكون مجرباً لأنواع الرياضات : كقلّة الأكل والكلام والنوم، وكثرة الصلاة والصوم والصدقة، والاقتباس من أنوار سيدنا محمد ﷺ[(37)].

يتفق الصوفيون في اهتمامهم بالرياضة الروحية مع ما ذهب إليه أعلام الفكر التربوي الإسلامي: كالقابسي والآجري والماوردي وابن سحنون، وغيرهم من العلماء المسلمين، فقد أفردوا للرياضة الروحية فصولاً خاصة، أشاروا فيها إلى أهم الضوابط والمباديء التي تحكم الرياضة الروحية في الإسلام منها: أن الرياضة الروحية في الإسلام ليس فيها تحريم لشيء أباحه الله ورسوله من الطيبات من الرزق، مادام أنه في حدود الاعتدال والتوسط كي لاتنشغل النفس بغير الله تعالى، لهذا فقد نبه أعلام الفكر التربوي الإسلامي إلى ضرورة عدم المبالغة والإسراف في الأكل والشرب والنوم لخطورة ذلك في التثاقل والتكاسل عن عبادة الله وطاعته والقعود عن طلب العلم، ومن الضوابط أيضاً أن تهدف الرياضة الروحية إلى إرضاء الله تعالى من خلال الاجتهاد في العبادة وملازمة الذكر والعمل الصالح الخالص لوجه الله الكريم.

4) **أن يكون ذا بصيرة وذكاء يمكناه من معرفة صلاحية المريد لسلوك الطريق الصوفي:**

أكد أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم على أهمية اتصاف الشيخ الصوفي بالذكاء والبصيرة التي تمكنه من معرفة صلاحية المريد لسلوك الطريق الصوفي، فقد أشار ابن عربي إلى ضرورة أن يعلم الشيخ ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد إذا فتح عليه في باطنه بين الفتح الروحاني وبين الفتح الإلهي، ويعلم بالشم أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون، ويعلم التحلية التي يحلى بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق، وهم له كالماشطة للعروس

تزينها[38]. ولا تكفي فراسة الشيخ الصوفي وجلو بصيرته في الكشف عن صلاحية المريد لاتباع الطريق الصوفي أو عدمه، بل لا بد أن يكشف على هذه الصلاحية عن طريق اختبار يختبر فيه المريد وقابليته للتعلم واستعداده لسلوك الطريق الصوفي، هذا ما أشار إلى أهميته الامام ابن عربي، وعده واجباً من واجبات الشيخ فقال: "يجب على الشيخ أن لا يقبل مريداً حتى يختبره"[39].

ويرى الباحث أن الصوفية في إقرارهم وجوب معرفة الشيخ بحال مريده وصلاحيته للطريق الصوفي يؤكدون أدبا مهما من آداب العالم المسلم الذي يتصدى للعلم والدعوة والإقتاء، وهو وجوب اتصافه بالفهم والبصيرة فيما يدعو إليه، وأن يكون على علم بحال من يتولى دعوتهم وتعليمهم امتثالاً لقوله تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[يوسف: 108].

5) **مخالفة سياسة النفس،** وهذا لا يتيسر كما يرى الإمام الغزالي إلا بترك جلساء السوء لتقصر عنه يد تصرفات شياطين الإنس والجن وترفع عنه التلوثات الشيطانية[40]. فالصوفية بهذا الأدب التربوي يؤكدون نوعا مهما من أنواع الجهاد، وهو جهاد النفس الأمارة بالسوء، وكبح جماحها، وصدها عن الخروج عن طاعة الله تعالى ورسوله الكريم، وجهاد أعوانها من جلساء السوء، فقد قال تعالى مبيناً طبيعة النفس الإنسانية: **﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[يوسف: 53].

6) **أن يكون قوله موافقاً لعمله:**

لما كان قول الشيخ حجة عليه بل هو الأساس الذي يعتمد عليه من يأخذ عنه من المريدين، فقد تنبه رجالات الفكر الصوفي إلى أهمية توافق قول الشيخ مع عمله، فذهب ابن عربي إلى أهمية هذا الأدب وضرورته في شخصية الشيخ الصوفي، إذ عد الشيخ الفاقد لهذا الأدب العظيم من طائفة الشيوخ الذين لايقتدى بهم فقال: "وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال عندهم – ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ تسلم لهم أحوال ولا يصحبون ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعول عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع، فإنه لا طريق لنا إلى الله أي ماشرعه، فمن قال بأن ثَمّ طريقاً إلى الله خلاف ما شرع فقوله زور، فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقاً في حاله[41]. وأنشد ابن عربي أبياتاً من الشعر طالباً من المريدين عدم الاقتداء بالشيخ الذي خالف بعمله ما لفظه لسانه من الشرع الحنيف فقال:

فإن بدا منهم حال تولهم عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثراً فإنهم طلقاء الله في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنباء عن الله[42]

وأكد الغزالي على أهمية موافقة قول الشيخ لعلمه، بأن لا يكذب قوله عمله؛ لأن الشيخ بمثابة القدوة لمريديه يستنيرون بقوله وعمله، فالغزالي يرى أن وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل، ويستدل الغزالي على هذا الأدب التربوي بقول الله تعالى: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾**[البقرة: 44]. ويقول الإمام علي كرم الله وجهه: قصم ظهري رجلان؛ عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه[43].

إن موافقة قول الإنسان لعمله من أهم الأخلاق التي حث عليها رب العزة في محكم التنزيل بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾**[الصف: 3]. فإذا كان هذا الخطاب موجهاً لعامة المؤمنيين فمن باب أولى أن يلتزم به العالم المسلم فهو قدوة طلابه في القول والعمل.

7) أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ:

العلم بكتاب الله جل وعلا وسنة نبيه الكريم ﷺ من أهم الشروط الواجبة في المتصدر للدعوة والإرشاد، فقد جاء في رسائل أعلام الفكر الصوفي ومؤلفاتهم أن من الشيوخ والمربين الصوفيين، شيوخا عارفين بالكتاب والسنة قائلين بها في ظواهرهم متحققين بها في سرائرهم، ويرعون حدود الله ويوفون بعهد الله قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع آخذين بالاحتياط، يجانبون لأهل التخطيط مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن طريق الله، وطريق الناس يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدون الحقوق إلى أهلها يبرون أخوانهم، بل الناس أجمعهم لا يقتصرون بالجود على معارفهم، جودهم مطلق الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ وكفؤ، والصغير لهم ابن[44].

8) أن يكون عارفا بأحوال النفس:

نبه أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم إلى أهمية أن يكون لدى الشيخ الصوفي معرفة ودراية كافية بأحوال النفس، حتى يستطيع فهم الحقائق النفسية التي تكون وراء السلوك لدى المريدين، فيعرف ميولهم واستعداداتهم وتوجهاتهم ورغباتهم واحتياجاتهم وغيرذلك من الأمور التي يستلزمها نجاح عملية التربية والتعليم، فذهب ابن عربي إلى ضرورة أن يكون المريد عارفاً بالنفس من أحكام، ولديه معرفة بعلم التربية ومراحل تطور المريد وانتقاله من الطفولة إلى الشباب ثم إلى الكهولة، وأن يكون على علم ودراية بطبائع المريدين وأمزجتهم[45].

وأوجب ابن عربي على الشيخ أن يفرق بين الخواطر فقال: وينبغي لك أن تفرق بين الخواطر كما فرقت بين الواردات، فإذا خطر لك خاطر في محظور أو مكروه فاعلم أنه من الشيطان بلا شك، وإذا خطر لك في مباح فاعلم أنه من النفس بلا شك، فخاطر الشيطان بالمحظور والمكروه، اجتنبه فعلاً كان أو تركاً، والمباح أنت مخير فيه: فإن غلب عليك طلب الأرباح فاجتنب المباح، واشتغل بالواجب المندوب، غير أنك إذا تصرفت في المباح فتصرف فيه على حضور أنه مباح، وأن الشارع لولا ما أباحه لك ماتصرفت فيه فتكون مأجوراً في مباحك لا من حيث كونه مباحاً، بل من حيث إيمانك به أنه شرع من عند الله، وإن خطر لك خاطر في فرض فقم إليه بلا شك فإنه من الملك، وإذا خطر لك خاطر في مندوب فاحفظ أول الخاطر فاثبت عليه، فإذا خطر لك أن تتركه لمندوب آخر هو أعلى منه أو أولى بك فإن الخاطر الثاني قد يكون من إبليس، فلا تعدل عن الأول، واثبت عليه، واحفظ على الثاني، وافعل الأول ولا بد، فإذا فرغت اشرع في الثاني فافعله أيضاً فإن الشيطان يرجع خاسئاً بلا شك[46].

واشترط الإمام الجنيد في الشيخ الصوفي أن يكون لديه معرفة بعلم الخواطر الذي يشتمل على ثلاثة أصناف أوردها على النحو الآتي:

- خاطر شيطاني باعثه وسوسة الشيطان لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[الأعراف: 201]. وهذا الخاطر له علامتان إحداهما تنبيه الإنسان ببعض ما تحتاج النفس إليه بداعي الشهرة أو داعي الراحة في الأوقات المألوف تحصيل النفس مطلوباتها فيها، والعلامة الثانية أن هذا الخاطر الشيطاني يبتدئ ويطرأ على عقل الإنسان، وذلك أن وسوسة الشيطان إنما هي تجري مجرى مخاطبة الإنسان للإنسان.
- خاطر رباني يستدل عليه بشاهدين أيضاً: أحدهما وهو المقدم موافقة الشرع للخاطر وشهادته بصحته، والثاني نفور النفس عن قبوله ابتداءً حتى يحصل لها نوع الترغيب.
- وخاطر شهواني وهو خاطر النفس لقوله ﷺ: "حفت النار بالشهوات" وهذا الخاطر باعثه الشهوة التي تنقسم إلى نفسانية كمحبة العلو والجاه والتشفي عند الغيظ، وإلى جسمانية كالطعام والشراب والنكاح واللباس والتنزه، وللنفس احتياج إلى هذا الملاذ بحسب بعدها عن كل واحدة منها وشدة توقانها إلى كل جنس تجانس منها، ولخاطر النفس علامتان إحداهما حضور هذا الخاطر عند احتياجها إلى بعض هذه الأشياء المشتبهات مثل حضور التزويج عند شدة حاجتها إلى النكاح، وتلبيسها ذلك عليه بأن قصدها إعمال قوله ﷺ: " تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" وتجنب قوله ﷺ: "لا رهبانية في الإسلام، والعلامة الثانية إلحاحه بهذا الخاطرة وعدم انقطاعه"[47].

ويرى الغزالي أن الخواطر التي يجب على الشيخ معرفتها هي آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الفعل أو الترك وحدوث جميعها في القلب من الله تعالى؛ إذ هو خالق كل شيء، وهي أربعة أقسام: قسم منها يحدثه الله تعالى في قلب العبد ابتداءً، فيقال له الخاطر فقط، وقسم يحدثه موافقاً لطبع الإنسان فيقال له النفس، وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان فينسب إليه ويقال له الوسواس، وقسم يحدثه الله ويقال له الإلهام[48].

إن الصوفية بإقرارهم أهمية معرفة الشيخ للأحوال النفسية الخاصة بمريديه من حيث معرفة طبائعهم وخصائصهم النفسية، فهم يؤكدون ما أكده علماء التربية الإسلامية الأوائل، حينما أقروا أهمية معرفة المربي المسلم لكل مايتعلق بطبيعة المتعلم من القدرات والحاجات والاستعدادات والميول والاتجاهات، وغير ذلك من المفاهيم التي تقابل ما يسمى في العلم الحديث علم النفس التربوي، فالصوفية هم من الأوائل الذين أشاروا إلى أهمية علم النفس من خلال تأكيدهم علم الخواطر النفسية الذي يجب أن يعرف أسراره الشيخ الصوفي.

9) أن يكون له مجلس يعلم فيه العلم:

ينظر أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم إلى الشيخ الصوفي بوصفه عالماً مؤهلاً للدعوة والإرشاد يشهد له أهل العلم، ولديه إذن من علمائه وشيوخه بالمشيخة وتصدر مجالس العلم وهو بهذا مكلف بتبليغ ما تعلمه من علوم وحكم للناس عامة ولمريديه خاصة، لهذا فقد نصح ابن عربي الشيخ الصوفي بترتيب ثلاثة مجالس: مجلس للعامة لا يحضره أحد من المريدين؛ لأن في السماح لهم بحضور هذا المجلس إساءة بحقهم، وشرطه في مجلس العامة أن لا يخرج عن نتائج الأحوال والكرامات وما كان عليه رجال الله في المحافظة على آداب الشريعة واحترامهم إياها، ومجلس للخاصة وشرطه أن لا يخرج عن نتائج الأذكار والخلوات والرياضات، وإيضاح السبل المضافة إلى الآية من قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[العنكبوت: 69]، ومجلس الانفراد وشرطه الانفراد من أصحابه زجره وتقريعه وتوبيخه، وأن الذي يأتي به المريد إليه حال نقص وضيع ذنبه على ردائة همته ونقصها. وهو خاص بفئات المجتمع،

وخطاب الشيخ مع هؤلاء يكون منحصراً في المحافظة على آداب الشريعة واحترامها، وما كان عليه رجال الله في المعاملات والأحوال والكرامات بسبب اتباعهم للشريعة المطهرة[49].

إن الصوفية بتأكيدهم وجوب اتخاذ الشيخ مجلساً يعلم فيه العلم يجمع عدة فئات وشرائح اجتماعية كالعامة، والخاصة من المريدين والأتباع، فهم يؤكدون وجوب مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وهذا يتفق مع مبدأ تربوي أكدت أهميته التربية الإسلامية عبر العصور، وهو مبدأ مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.

<u>ثانياً: آداب المريد في الفكر التربوي الصوفي</u>:

تضمنت رسائل أعلام الفكر الصوفي ومؤلفاتهم عدة آداب خاصة بالمريد نوردها على النحو الآتي:

1) احترام المريد لشيخه:

إن من أهم آداب المريدين التي اشتملت عليها الرسائل والمؤلفات الصوفية التي ظهرت خلال المدة الزمنية من القرن الثالث إلى السابع الهجريين احترام مشايخهم وتوقيرهم، فمن لم يحترم شيخه من المريدين ممقوت بين العباد محروم من نور الإيمان، هذا ما تضمنته رسائل الإمام أبي قاسم الجنيد فقد جاء فيها: "من حرم احترام المشايخ ابتلاه الله تعالى بالمقت بين العباد وحرم نور الإيمان"[50].

إن احترام المريد لشيخه هو ما يقابله في الفكر التربوي الإسلامي احترام المتعلم لأستاذه، فقد تنوعت صور هذا الاحترام والتوقير لتشمل قيام المتعلم لأستاذه عند دخوله قاعة التدريس على وجه البر لا على وجه التعظيم، وتقبيل المتعلم يد معلمه، وجلوسه على هيئة المتعلم طالب العلم بأن يكون ناصباً لظهره غير متكئ ولا منكفئ وغير مشغول بحركات أصابع يديه أو قدميه، ومن آدابه أيضاً توقير مجلس معلمه باحترامه والتزام الهدوء والسكينة فيه، ومن آدابه أيضاً الانتباه والإصغاء لما يلقى إليه من علم، والإقبال عليه بكافة حواسه.

2) أن يسلم المريد قيادة نفسه لشيخ مربّ تتوافر فيه خصائص الإرشاد:

أوجب أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم على المريد اتخاذ شيخ يرشده إلى الطريق الصوفي، وييسر له سبل المعرفة، فقال ابن عربي[51]: "وما لا بد منه شيخ مرشد لأن طالب معرفة الله لا يصل إلى مقصوده إلا بصحبة شيخ". وذكر ابن عربي[52] في رسالة نفائس العرفان أن من وجد شيخاً سهلت عليه الطريق، ومن لم يجد شيخه لم يجد قلبه، ومن لم يجد قلبه فقد ربه.

يتفق الصوفية في إقرارهم لهذا الأدب التربوي الخاص بالمتعلم مع معظم المفكرين المسلمين الذين تناولوا آداب العالم والمتعلم بالدراسة والتحليل، فمن آهم هذه الآداب اختيار المتعلم لمعلمه وفقاً لشروط ومعايير من أهمها: وفرة العلم والكفاءة (الأهلية)، وذلك بأن يكون على دراية تامة بموضوع تخصصه وبالمادة التي يدرسها، ومن معايير اختيار المعلم؛ قدرة المعلم على إيصال المادة العلمية للمتعلم، وأن يبحث المتعلم عن المعلم ذي الشهرة العلمية، والقادر على الاتصال بأهل العلم.

3) التحلي بأخلاقيات الطريق الصوفي الآتية:

- التقوى وأداء ما افترضه الله من فروض وعبادات، فقد أجمع أعلام الفكر الصوفي في رسائلهم ومؤلفاتهم أن المريدين الذين لايؤدون حق الله ولا يتقونه لا يستحقون الترقي في الطريق الصوفي، فقد أكد هذا الامام الجنيد في رسائله

فقال: لا يرتقون في الدرجات فمن لم يحكم فيما بينه وبين الله أول البداية، وهي الفروض الواجبة ثم الأوراد الزاكية، ومطايا الفضل وعزائم الأمر، فمن أحكمها من الله عليه بما بعدها"[53].

- التوبة ورد المظالم، فقد نبه الامام الغزالي المريد إلى ضرورة الرجوع إلى الله بالتوبة النصوح، وأن يعاهده على أن لا يعود إلى ما كان عليه من المعاصي والزلات[54].
- الصدق، فقد أشار الجنيد إلى أهمية التزام المريد بالصدق فقال: المريد الصادق غني عن علوم العلماء يعمل على بيان، ويرى وجه الحق، ويتوقى وجوه الشر[55].
- الاعتقاد السليم الخالي من البدع[56].
- التنزه عن الشبهات: التي تورث في القلب القساوات[57].
- المداومة على الذكر والاستغفار لأهميتهما في محو الذنوب ودورهما في صفاء الخاطر[58].

4) تعلم علوم الشريعة:

يرى الغزالي أن المريد مطالب بتعلم الضروري من علم الشريعة بقدر ما يعمل بأوامر الله، ويقف عند نواهيه، فقال:" تحصيل علم الشريعة بقدر مايعمل بأوامر الله، ويقف عن نواهيه، ولا يجب عليه من علم الشريعة سوى ذلك، وأما غير علم الشريعة فيكفيه أن يتعلم بالقدر الذي به نجاته وخلاصه"[59]. وتضمنت رسائل ابن عربي ضرورة تعلم المريد للعلم الديني، فقال:" لهذا يتعين على المريد طلب العلم الديني الذي يقيم به طهارته وصلاته وصيامه، وما يفرض عليه ثم العمل به"[60]. وأكد العلماء المسلمون هذا الأدب التربوي الفريد من خلال إقرارهم لأفضل الأعمال التي يجب أن يقصدها طالب العلم، وهو طلب العلم الشرعي المتصل بتلاوة القرآن، وتفسيره وفقه أحكامه، وذلك امتثالاً لقوله ﷺ: مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا. أبو داوود، سنن أبي داوود، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، حديث رقم (3664).

5) عدم مخالطة أبناء الدنيا الذين يخالفون مساره الروحي:

حذر ابن عربي المريدين من مصاحبة من جعل همه الإحاطة بمال الدنيا، ومنافسة الناس بجمع المال على حساب عبادة الله وتقواه، فقال: "ولا تصاحب المتنافسين في الدنيا فإنهم يأخذون بقلبك عن الله تعالى فإن اضطرك أمر صحبتهم فعاملهم بالنصيحة، ولا تغشهم فإنك تعامل الحق ﷻ"[61].

وأكد الصوفيون من خلال الأدب التربوي السابق أهمية الصحبة للمريد، وهم بهذا يتفقون مع معظم المفكرين المسلمين الذين نبهوا إلى أهمية الصحبة بالنسبة لطالب العلم؛ لما لها من أثر بالغ في شخصيته وأخلاقه وسلوكه، فأوجبوا على طالب العلم اختيار أصدقائه ممن يعرفون بالتقوى والصلاح كي يسمو بأخلاقه ويتميز بسلوكه.

المطلب الرابع: السلبيات المتعلقة بآداب الشيخ والمريد والواردة في المؤلفات والرسائل الصوفية:

على الرغم من الإيجابيات الواردة في الرسائل والمؤلفات الصوفية المتعلقة بآداب الشيوخ والمريدين الصوفيين، إلا أنها لا تخلو من بعض السلبيات والمآخذ التي تتعارض مع التربية الإسلامية التي أقر مبادئها وأسسها طائفة من العلماء

المسلمين الذين ساروا على وفق النهج الإسلامي القويم كابن تيمية –رحمه الله– وغيره من علماء السلف الصالح الذين تناولوا الفكر الصوفي بالنقد والتحليل، وفيما يلي بعض هذه السلبيات:

أولاً: وجوب اتخاذ الشيخ وعدم قبول العلم إلا من جهته:

يرى الصوفيون أن أول مايجب على مريد الطريق الصوفي اتخاذ شيخاً يدله على الطريق الصوفي، وييسر له سبل المعرفة، كما ورد في رسائل ابن عربي الذي بالغ في وجوب اتخاذ الشيخ لدرجة فقدان القلب لدى من لا يتخذ شيخ من المريدين، وليس كل شيخ يصلح أن يكون شيخا في الطريق الصوفي، بل لابد أن يمر بمراحل الطريق من أولها إلى نهايتها، أو على الأقل قد أخذ العهد من شيخ سابق أو والد له وقد أذن له الشيخ أو الأب بتسليك المريدين، وإدخالهم في الطريق وتلقينهم الأذكار الخاصة. وكي تكون المشيخة الصوفية مشيخة معتبرة فقد اخترع المتصوفة شيئاً أسموه السلسلة الصوفية، وهي عبارة عن سند يتناقله الخلف عن أسلافهم حتى تنتهي حسب زعم الصوفيين إلى الجنيد الذي يسمونه سيد الطائفة، وأن الجنيد قد أخذها من سري السقطي، والسقطي أخذها عن معروف، ومعروف عن داوود الطائي، وداود الطائي عن حبيب العجمي، والعجمي عن الحسن البصري، والحسن البصري عن علي بن أبي طالب ﷺ فعن تلك السلسلة يقول ابن عربي: "اعلم أنه قد صح وثبت بحكم النقل عند المشايخ، أن علياً أمير المؤمنين دخل على رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دلني على أفضل الطريق وأقربها، فقال رسول الله ﷺ عليك ياعلي بما نلت ببركة النبوة، فقال علي: ماهذا يا رسول الله، قال –عليه الصلاة والسلام–: ذِكْر الله تعالى، قال علي: يا رسول الله هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون، قال رسول الله ﷺ: مه ياعلي، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله، الله، ثم قال: أحصيت ياعلي حتى أنا أقوله ثلاث مرات وأنت تسمع مني فإذا أمسكت فقل أنت حتى أنا أسمع منك. فهكذا لقن رسول الله علياً، ولقن علي الحسن البصري ثم لقن الحسن حبيباً العجمي ثم لقن داود معروفاً الكرخي، ولقن معروف سري السقطي، وهو لقن أبا القاسم الجنيد بن محمد البغدادي، وعلى هذه السلسلة باقي المشايخ –رحمهم الله–(62).

من خلال ما تقدم فإنه يمكن الرد على ماذهب إليه المتصوفة من وجوب اتخاذ المريد للشيخ، وعدم قبول العلم إلا من جهته كما يلي:

- إن الحديث السابق الذي اعتمدوا عليه لا أصل له في كتب السنن، وهو يخالف ما ثبت عن النبي ﷺ من أنه لم يخص أهل بيته لا علياً ولا غيره بذكر خاص أو بعلم خاص امتثالاً لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**[المائدة: 67].
- لا شك أن كل طالب علم مبتدئ محتاج إلى من سبقه في مجال العلم الذي يطلبه ليتلقى عنه ذلك العلم، وهذا يحصل بالتلقي المباشر عن المعلم أو قراءة الكتب المختصة بذلك العلم على يد معلم أو أكثر وهذا عام في كل العلوم، فإذا كان طالب ذلك العلم ممن يملك القدرة على القراءة والفهم والتمييز بين الصحيح والسقيم ونحو ذلك، وكانت مصادر ذلك العلم متوافرة فلا شك أن حاجته للمعلم تقل عن حاجة من لم يسبق له التعلم مطلقاً وإن كان الجميع محتاجين في بدايتهم إلى المعلم(63).

ويرد شيخ الإسلام ابن تيمية على الصوفية في مسألة وجب اتخاذ الشيخ بقوله: "وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن. كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ وتلقاه عنهم التابعون،

وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المريد يحتاج إلى من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك يحتاج إلى من يعلمه الدين الباطن والظاهر، ولا يتعين ذلك في شخص معين، ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين[64].

ثانياً: الاقتصار على شيخ واحد في التربية:

نهى أعلام الفكر الصوفي أن يتخذ المريد لنفسه أكثر من شيخ لهذا قالوا: "لن ترى للعارف وجهتين أصلاً"[65]. وبرر ابن عربي عدم جواز اتخاذ المريد لشيخين فقال: "والأصل أنه كما لم يكن العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع، وامرأة بين زوجين، كذلك لا يكون المريد بين شيخين"[66]. لهذا فقد قدم ابن عربي في رسالته الحكمة الحاتمية وصفاً للشيخ الذي تتوافر فيه الكفاءة التي تقتضي عدم مفارقة المريد له ووجوب ملازمته فقال: "الشيخ من زاح عنك كل حجبك، واستأذنك الحق في قربك، الشيخ من نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتصال، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وأجال بروحك في عوالم اللاهوت، الشيخ من قنع من الدنيا باليسير وهان عليه كل عسير، الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ مالك، ليس الشيخ من تخدمه الملوك الدنيوية إنما الشيخ من تخدمه الملائكة العلوية، الشيخ من كشف عنك غطاءك وأشهدك من إياك"[67].

إن المتتبع لمسيرة الفكر التربوي الإسلامي في عصر الصحابة والتابعين يجد أنهم لم يعرفوا مصطلح شيخ التربية بمدلوله ومعناه الصوفي؛ وذلك لأن المسلمين الأوائل كانوا يتصفون بالتقوى والصلاح والسير على وفق المنهج الإسلامي القويم، فلم يحتاجوا إلى شيوخ لتربية سلوكهم، فكانوا إذا حزبهم أمر نفسي أو روحاني لجأوا إلى أحد الشيوخ الصالحين فيرقيهم ويدعو لهم من صالح الدعاء فيزيل كربهم ويبدد همهم، ومن الأسباب التي كانت تقف وراء عدم معرفة المسلمين الأوائل لشيوخ التربية بالمفهوم الصوفي أن نفوسهم كانت مفطورة على حب الخير والاستقامة والتربية السليمة المستمدة من بيئتهم الإسلامية النقية.

وتجدر الإشارة أيضاً أن الأئمة الفقهاء كانوا يمارسون مهمة التربية الروحية والعقلية من خلال تأكيدهم لها في مسائلهم الفقهية، فلم تكن التربية لديهم تتم بمعزل عن فقههم بأحكام الدين، فكان الفقيه عالماً في الفقه والتربية معاً، لهذا فإن مصطلح شيوخ التربية من المصطلحات التي عرفها المربون المسلمون بعد القرن الهجري الثاني.

وخلاصة القول فإن ما ذهب إليه شيوخ الصوفية من إلزام مريديهم بتلقي التربية عن شيخ واحد فيه مخالفة لما سار عليه العلماء المسلمون الذين أخذوا العلم عن أكثر من عالم وشيخ مسلم، فمنهم من طلب الفقه من شيخ معين، وتلقى علوم الحديث من شيخ آخر، وتعلم التفسير على يدي مفسر اشتهر بتفسير القرآن حتى صار بعلمه موسوعة متنوعة من المعارف والعلوم. ومن المآخذ الواضحة على شيوخ الصوفية في هذا الجانب أن الاقتصار على شيخ واحد وما قابله من إعجاب المريدين بشيوخهم جعلهم يقبلون كل ما صدر عن شيوخهم حتى وإن كان خطأً، لأنه لامجال لهم في كشف خطأ شيوخم؛ لعدم ترددهم على غيرهم، والصواب في ذلك هو تنقل طالب العلم بين الشيوخ لمحاكمة آرائهم العلمية وقبول ما أجمع عليه الشيوخ في بعض المسائل العلمية.

ثالثاً: المبالغة في طاعة الشيخ وعدم مخالفته:

إن من أهم آداب المريدين التي اشتملت عليها الرسائل والمؤلفات الصوفية وجوب احترام مشايخهم وتوقيرهم، وعدم مخالفتهم، فالمتأمل في النصوص الواردة في الرسائل التي تناولتها الدراسة يجد أنها بالغت في تأكيد أهمية طاعة الشيخ لدرجة أنهم شبهوا المريد الطائع بالميت بين يدي الغاسل، ومن شعرهم في هذا الباب في قولهم:

كن عنده كالميت عند مغسل   يقلبه كيف يشاء وهو مطاع

ومما ورد عنهم من المبالغات أنهم عدوا من حرم طاعة الشيخ واحترامه شخصا ابتلاه الله بالمقت والعذاب، ومريدا فقد وجود الحق في قلبه. وذهب الغزالي إلى أبعد من هذا فقد أوجب على المريد احترام شيخه بأن لا يجادله ولا ينكر عليه ولا يقيم الحجة عليه في أي مسألة وإن تحقق خطأه، وأن يتمسك بشيخه تمسك الأعمى[68]. ومن مظاهر احترام المريد لشيوخه عند الإمام ابن عربي أن لا يلبس ثيابهم ولا يقعد في مكانهم ولا ينكح المريد امرأة شيخه إن طلقها أو مات عنها، ولا يرد في وجوههم كلاماً"[69]. ومما ورد عنهم أيضاً من المبالغات قولهم إن الشيخ لايقبل مريده حتى يخضعه للامتحان والتجربة مدة قد تصل إلى ثلاثة أيام. ومن مبالغاتهم في الطاعة أيضاً أن الصوفية اتخذوا شعاراً يدل على اختصاص المريد بشيخ معين، وهذا الشعار هو الخرقة التي يضعونها على رؤوسهم كعلامة للتفويض والتسليم لهذا الشيخ[70].

إن الصوفية بهذا قد تجاوزوا حدود الطاعة التي أوجبها الله على عباده الطائعين، وذلك حين ألزموا المريد بطاعة الشيخ طاعة عمياء، حتى وإن ثبت خطأه وابتعد عن الحق والصواب، ففي هذا الشأن يرد عليهم ابن تيمية بقوله: " فإن كان الشيخ مهما علا أمره وارتفع شأنه يملي على مريديه ما يوافق الكتاب والسنة فنعمت الطريقة ونعم المسلك، وإن كان ما يمليه عليهم مخالفاً للكتاب والسنة، فالواجب رفضه فإنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، وليس أحد معصوم إلا رسول الله ﷺ. وأما إن كان مبتدعاً بدعة ظاهرة، أو فاجراً فجوراً ظاهراً، فهذا يجب الإنكار عليه في بدعته وفجوره، لا أن يطاع فيما يأمر به[71].

وأما فيما يتعلق بالخرقة التي اتخذها بعض الصوفية شعاراً للطاعة المستوجبة على المريد لشيخه، وأن فيها سلسلة البركة فيقول ابن تيمية: "وأما لباس الخرقة التي يلبسها بعض المشايخ المريدين، فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين، ولكن طائفة من المتأخرين أرادوا ذلك واستحبوه"[72].

رابعاً: تقديم الذكر في الأهمية على باقي العبادات كقراءة القرآن الكريم:

أكد الصوفيون أهمية الذِكْر، وضرورة ملازمته، وتقديمه على باقي العبادات، فهذا الغزالي ينصح المريد في أثناء خلوته أن لايقرن همه بقراءة قرآن ولا بتأمل التفسير ولا كتابة حديث؛ لأن هذا يشغله عن تحصيل المطلوب فقال: "فإن قلت: فقد عظمت أمر الذكر، فهو أفضل أم قراءة القرآن؟ فاعلم أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم إلا للذاهب إلى الله ﷻ، فمداومة الذكر أولى به، فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في رياض الجنة، والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها، بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً، وذكره ذكراً واحداً حتى يدرك درجة الفناء والاستغراق؛ فلذلك قال الله تعالى ﷻ: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾[العنكبوت: 45][73]. وتناول شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الكلام وناقشه فبين فساده بقوله: "فهذا الكلام سيعظمه في بادئ الرأي من لم يعرف حقيقة ماجاء به الرسول ﷺ"[74].

وأكد شيوخ الصوفية على ضرورة الاقتصار على الأذكار التي تلقنوها من شيوخهم ولا يتجاوزونها إلى أذكار غيرها، والإكثار من ترديد لفظ الجلالة المفرد، الله، الله، متناسين أو متجاهلين قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا**﴾[الإسراء: 111]. فالله لم يقيد عبده المتوجه إليه بالسؤال والتضرع بلفظ معين أو اسم من أسمائه الحسنى دون غيره، بل يجوز للمسلم أن يدعو بأي اسم او صفة من أسماء الله الحسنى.

وذهب شيوخ الصوفية إلى وجوب لزوم الألفاظ التي حددها لهم مشايخهم، والاقتصار على ترديد لفظ الجلالة الله، الله، ولا يجوز تجاوز ذلك إلى ألفاظ أخرى كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغيرها من الألفاظ التي حث عليها رسول الله ﷺ بقوله: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ". الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ماجاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، حديث رقم (3467). فعن أهمية هذا الذكر النبوي يقول الوكيل[75]: "أرأيت إلى هذا الذكر النبوي الجامع؟ إنها ضراعة النبوة والعبودية الخالصة تفتحت لها أبواب السماء مافيه ذكر باسم مفرد، ولاضرب صدر بذقن، ولاهزة الرأس إلى أخمص القدم، مافيه التناوش بالرأس يمنة ويسرة، ولا نتع من سرة إلى قلب، مافيه منشد ولا دق ولا شبابة، مافيه دائرة يقف في مركزها نصب يرقص الذاكرين بتصديته، إنما فيه قلب مؤمن ضارع ملأه حب الله خشية ورهبة وتقوى".

<u>خامساً: التوبة مشروطة بعدم نسيان الذنب ودوام تذكره:</u>

أكد الصوفيون أهمية الرجوع إلى الله بالتوبة النصوح، وعدم العودة إلى ماكان عليه المرء من المعاصي والزلات، فالمتأمل في مصنفاتهم ومؤلفاتهم يجد أنهم أفردوا للتوبة فصولاً خاصة أجابوا فيها على عدة تساؤلات، لعل من أهمها: هل تقتضي التوبة من التائب نسيان الذنب؟ أو دوام تذكره؟ فقد أورد القشيري في رسالته: "سمعت الجنيد يقول دخلت على السري يوماً فرأيته متغيراً فقلت له مالك؟ فقال دخل علي شاب فسألني في التوبة فقلت له: أن لا تنسى ذنبك فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت والكلام للجنيد: إن الأمر عندي ما قال الشاب. قال: لم؟ قلت: لأني إذا كنت في حالة الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت[76]. ويرد ابن تيمية على موقفهم من توبة العبد بقوله: "أنه قد يكون العبد بعد التوبة من الذنب خيراً منه قبل الذنب، واستشهد ابن تيمية برأي طائفة من السلف منهم سعيد ابن جبير حيث قالوا: "إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة. يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار، ويعمل السيئة فلا يزال خدمة منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة"[77].

<u>سادساً: هجران القرآن الكريم:</u>

ذهب بعض المتصوفة إلى القول بأن القرآن الكريم ارتفعت خاصيته بموت رسول الله ﷺ وأن تلاوته تشوش الأفكار، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى في محكم تنزيله:" ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾[الإسراء: 82]. وقوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾[البقرة: 26]. وقوله ﷺ: "من ابتغى الهدى في غيره أضله الله". الترمذي، سنن الترمذي، كتاب فضائل الأعمال، باب ما جاء في القرآن الكريم، حديث رقم (2906).

ويرد ابن تيمية عليهم بقوله: "وإذا لم يكن كلام رب العالمين محلاً للفتح والتمكين فأي كلام أولى به وأحق في الدين، أهذيان المبطلين، وشقائق الملحدين، وخزعبلات اللاعبين، وتحريفات المارقين، وطرائق الخارجين عن سنن المهتدين، الذين اعتمدوا مجرد الباطل، فوقعوا في كل شر وباطل، وإذا كانت الجلود منه تقشعر، والقلوب به تلين، والذكر إنما ينشأ عن ذلك، وهو فرع الخشية الدالة على صحة العلم بالله، فكيف بما يترتب على ذلك، أيصح مشروط بدون شرطه، أو نهاية بدون بداية، لكن فقد نور الإيمان، وانعدام حقائق الإيقان موجب لأكثر من هذا، قال تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾**[النور: 40][78].

سابعاً: تلقبهم بألقاب ومسميات لم ترد في القرآن والسنة النبوية الصحيحة:

إن من المآخذ على شيوخ المتصوفة اتخاذهم ألقابا ومسميات لم ترد في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ، فقد أكد هذا كثير من علماء السلف الصالح كابن قيم الجوزية وابن تيمية رحمهما الله تعالى، فقال ابن القيم: "إن أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما فيها: "فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر" ذكره أحمد، ولايصح لا تسبوا أهل الشام أيضاً، فإنه منقطع" "ابن قيم الجوزية، المنار المنيف، 85، حكم المحدث: لايصح"[79]. وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الحديث المروي في الأبدال، هل هو صحيح أم مقطوع؟ وهل الأبدال مخصوصون بالشام أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال، بالشام وغيره من الأقاليم؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعداً في جماعة ويغيب جسده، وما قول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة؟ ويقولون هذا غوث الأغواث، وهذا قطب الأقطاب، وهذا قطب العالم، وهذا القطب الكبير، وهذا خاتم الأولياء؟ فأجاب –رحمه الله-: "أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة، مثل الغوث الذي بمكة، والأوتاد الأربعة، والأقطاب السبعة، والأبدال الأربعين، والنجباء الثلاث مائة، فهذه الأسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ باسناد صحيح ولا ضعيف محتمل، إلا لفظ الأبدال، فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: إن فيهم – يعني أهل الشام– الأبدال الأربعين رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا. "ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 11/434، حكم المحدث: منقطع الإسناد"، ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ[80].

نتائج الدراسة وتوصياتها:

أولاً: كشفت الدراسة أن رسائل أعلام الفكر الصوفي ومؤلفاتهم التي ظهرت في الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث إلى السابع الهجريين تضمنت عدد من الآداب الإيجابية التي نظمت العلاقة بين الشيخ والمريد، كأهلية الشيخ الصوفي للدعوة والإرشاد، وحصوله على إذن من شيخه يجيز له التصدر للعلم أو شهادة طائفة من العارفين بأهليته لذلك، وضرورة معاملة مريديه برفق ولين، ومن آدابهم الخبرة برياضة المريدين الروحية، وأن يكون ذا بصيرة وذكاء يؤهله لمعرفة المريد وصلاحيته لسلوك الطريق الصوفي، وتجنب جلساء السوء، وأن يكون قوله موافقاً لعمله، وأن يكون عالماً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن يكون عارفاً بعلم النفس أو مايسميه علماء الصوفية علم الخواطر، وأن يخصص لنفسه مجلساً يعلم فيه العلم، وأن يختبر مريده قبل التحاقه بالطريق الصوفي.

ثانياً: أظهرت الدراسة مجموعة من الآداب الإيجابية الخاصة بالمريد الصوفي، تتمثل باحترام المريد لشيخه، اختياره لشيخ مرب تتوافر فيه خصائص الإرشاد، تحليه بأخلاقيات الطريق الصوفي كالتوبة وردّ المظالم، والصدق، والاعتقاد السليم الخالي من البدع، والتنزه عن الشبهات، والمداومة على الذكر والاستغفار، وتعلم علوم الشريعة، وعدم مخالطة أبناء الدنيا الذين يخالفون مساره الروحي.

ثالثاً: كشفت الدراسة عن عدد من السلبيات المتعلقة بآداب الشيوخ والمريدين الصوفيين مثل: الاقتصار على شيخ واحد في التربية وعدم تلقي العلم إلا من جهته، والمبالغة في طاعة الشيخ وعدم مخالفته، وتقديم الذكر في الأهمية على باقي العبادات كقراءة القرآن الكريم، والتوبة المشروطة بعدم نسيان الذنب ودوام تذكره، وهجران القرآن الكريم، والألقاب والمسميات المخالفة للكتاب والسنة. وجاءت هذه الدراسة متفقة مع نتيجة دراسة للوه(81)، التي كشفت عن أهم الآداب التي تحكم سلوك كل من المريد والشيخ، ودراسة قويدري(82) التي تناولت دراسة للتراث التربوي عند أعلام الفكر الصوفي وما أورده من آداب تنظم علاقة الشيخ بمريده، ودراسة داوود(83) التي أشار فيها إلى المنهاج التربوي والتعليمي الصوفي، وأهم آداب الشيخ والمريد الصوفي، ودراسة أبو راس(84) التي أشارت إلى آداب السلوك في الرسالة الصوفية عند ابن عربي.

توصيات الدراسة:

- توصي الدراسة بضرورة العودة إلى التراث العربي الإسلامي والتعامل معه بموضوعية بهدف تنقيته مما علق به من أفكار غريبة عن الإسلام، وتعزيز الأفكار الأصيلة التي تعبر عن رقي التجربة التربوية الإسلامية، وتكثيف الجهود التربوية لنقلها إلى الأجيال اللاحقة.
- توصي الدراسة القائمين على عملية تصميم المناهج التعليمية وتطويرها في كافة البلدان الإسلامية بضرورة تضمينها الآداب الايجابية المتعلقة بالشيوخ والمريدين والمعلمين والمتعلمين في الفكر التربوي الإسلامي، لتنظيم علاقتهم مع معلميهم على وفق المنهج التربوي الإسلامي الذي أقره المربون المسلمون الآوائل.
- توصي الدراسة القائمين على عملية تصميم الخطط الدراسية وتطويرها، في المؤسسات التعليمية العليا كالمعاهد والجامعات في كافة بلدان العالم الإسلامي بضرورة تضمين مادة الثقافة الإسلامية التي تدرس كمتطلب إجباري، فصولاً خاصة عن أداب المعلمين والمتعليمن بهدف تنظيم علاقة الطلبة بأساتذتهم الجامعيين.
- ضرورة عقد الندوات والمحاضرات الثقافية في رحاب المدارس والجامعات، ذات المواضيع المتعلقة بالآداب الإيجابية المتعلقة بآداب المريدين والشيوخ والمعلمين والمتعلمين في الفكر التربوي الإسلامي، بهدف تعريف الطلبة بأصالة التجربة الإسلامية، وخدمة النظام التربوي المعاصر.
- توصي الدراسة القائمين على المؤسسات الإعلامية في الدول الإسلامية كافة عقد البرامج الإعلامية التي تتعلق بدور المربين المسلمين في توسيع قاعدة الفكر الإسلامي خلال القرون الإسلامية الزاهرة.
- توصي الدراسة الباحثين والدارسين بضرورة إجراء دراسات حول علم النفس عند الصوفيين، أو ما يسمى بعلم الخواطر كما ورد في رسائل ومؤلفات المفكرين الصوفيين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(1) فيصل بدير عون، **التصوف الإسلامي – الطريقة والرجال**، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، 1983م، ص1-265.

(2) توفيق الطويل، **في تراثنا العربي الإسلامي**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1985م، ص154.

(3) عبد الحكيم قاسم، **المذاهب الصوفية ومدارسها**، القاهرة، مطابع الدار البيضاء، القاهرة، 1989م، ص1-208.

(4) رئيفة أبو راس، **أدب السلوك والعرفان في الرسالة الصوفية عند ابن عربي وابن سبعين**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب، 1990م.

(5) علي الخطيب، **من أعلام التصوف الإسلامي**، القاهرة، دار نهضة الشرق، 2001م.

(6) عبد الحكيم داوود، **المنهج التربوي والعلمي عند الصوفية**، الإسكندرية، مكتبة الإشعاع الفنية، 2002م.

(7) عمر للوه، **المضامين التربوية للفكر الصوفي في الإسلام**، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة عمان العربية، عمان، 2009م.

(8) الأخضر قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، دار نينوى، دمشق، 2010م.

(9) أبو بكر محمد بن اسحق الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993م، (ط1) ، ج1، ص21.

(10) عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، الإسكندرية، دار ابن خلدون، ص164.

(11) أبو نعيم الأصبهاني، **تهذيب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، المكتب الإسلامي، 1998م، (ط1) ، ج1، ص239.

(12) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلامابن تيمية، **فقه التصوف**، بيروت، دار الفكر العربي، 1993م، (ط1) ، ص11.

(13) عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار القلم، 1984م، (ط5)، ص467.

(14) أبو الوفا التفتازاني، **مدخل إلى التصوف**، القاهرة، دار الثقافة، 1979م، (ط1)، ص98.

(15) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص71.

(16) الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، ص20.

(17) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي – قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص15.

(18) الطويل، **في تراثنا العربي الإسلامي**، ص159.

(19) سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي**، بيروت، المؤسسة الجامعية للتوزيع والنشر، 1981م، (ط1) ، ص909.

(20) سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي**، ص909.

(21) علي بن محمد الجرجاني، **معجم التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، ص149.

(22) علي بن محمد الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص36.

(23) أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، القاهرة، عالم الكتب، 2008م، ج1، ص173.

(24) الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص40.

(25) الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص201.

(26) الجرجاني، **معجم التعريفات**، ص206.

(27) الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، ص162-163.

(28) محيي الدين ابن عربي، **الفتوحات المكية**، تحقيق: أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999م، (ط1) ، ج2، ص1405.

(29) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج2، ص1405–1406.

(30) أبو حامد محمد الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986م، ص146.

(31) عبد الله فياض، **الإجازات العلمية عند المسلمين**، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1967م.

(32) عبد العزيز الشناوي، **الأزهر جامعاً وجامعة**، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1983م.

(33) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين**، الدمام، دار القيم، 1994م، (ط2) ، ج1، ص87.

(34) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص85.

(35) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص146.

(36) أحمد بن علي البغدادي، **الفقيه والمتفقه**، الرياض، دار الوطن، 1997م، (ط1) ، ص349.

(37) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص146.

(38) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج2، ص1405.

(39) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص379.

(40) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص146.

(41) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج2، ص 1405.

(42) المصدر ذاته، ج2، ص1405.

(43) أبو حامد محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، القاهرة، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، 1988م، (ط1) ، ج1، ص101.

(44) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ص1405.

(45) المصدر ذاته، ج2، ص1405.

(46) ابن عربي، **الأسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار**، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004م، (ط1)، ص104–105.

(47) أبو القاسم الجنيد، **رسالة أدب المفتقر إلى الله**، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1988م، ص65.

(48) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص78.

(49) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ص227.

(50) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص89.

(51) ابن عربي، **رسالة مواقع النجوم**، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط1، ج1، ص523.

(52) ابن عربي، **رسالة نفائس العرفان**، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2000م، (ط1) ، ج2، ص237.

(53) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي– قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص89.

(54) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص171.

(55) الجنيد، **رسائل الجنيد**، تحقيق: جمال رجب، دمشق، دار إقرأ، 2005م، (ط1)، ص231.

(56) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص141.

(57) ابن عربي، **رسالة مواقع النجوم**، ج1، ص584.

(58) ابن عربي، **رسالة مواقع النجوم**، ج1، ص530.

(59) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص141.

(60) ابن عربي، **الأسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار**، ص50.

(61) ابن عربي، **رسالة مواقع النجوم**، ج1، ص528.

(62) عبد الرحمن عبد الخالق، **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**، الكويت، مكتبة ابن تيمية، ص317.

(63) أحمد بن محمد بناني، **موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية**، مكة المكرمة، دار طيبة الخضراء، 2005م، (ط3)، ص215.

(64) أحمد عبدالحليم ابن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرياض، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 2004م، ج10، ص294.

(65) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي- قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف الإسلامي**، ص309.

(66) ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج2، ص1405.

(67) ابن عربي، **رسالة مواقع النجوم**، ج1، ص584-588.

(68) الغزالي، **رسالة خلاصة التصانيف**، ص147.

(69) ابن عربي، **رسالة نفائس العرفان**، ص370.

(70) بناني، **موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية**، ص215.

(71) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية**، ج11، ص517- 520.

(72) المصدر ذاته، **فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، ج11، ص510.

(73) أبو حامد محمد الغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، دمشق، دار القلم، 2003م، (ط1) ، ص71.

(74) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد**، تحقيق: موسى الدويش، المدينة المنورة، 2001م، (ط3)، ج1، ص222.

(75) عبد الرحمن الوكيل، **هذه هي الصوفية**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1984م، (ط4)، ص146-147.

(76) عبد الكريم بن هوازن القشيري، **الرسالة القشيرية**، دمشق، عبد الوكيل الدروبي، ج4، ص79.

(77) ابن تيمية، **فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية**، ج10، ص294.

(78) أحمد زروق، **عدة المريد الصادق**، بيروت، دار ابن حزم، 2006م، (ط1)، ص86.

(79) ابن قيم الجوزية، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي، الرياض، دار العاصمة للنشر والتوزيع، 1996م، (ط1)، ص85-86.

(80) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **مجموع المسائل والرسائل**، لجنة التراث، 2010م، ج1، ص46.

(81) عمر للوه، **المضامين التربوية للفكر الصوفي في الإسلام**، رسالة دكتوراة غير منشورة, جامعة عمان العربية، عمان، 2009م، ص1-379.

(82) قويدري، **الفكر التربوي الصوفي- قراءة في التراث التربوي عند أعلام التصوف**، ص1-423.

(83) عبد الحكيم داوود، **المنهج التربوي والعلمي عند الصوفية**، مكتبة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، ط1، 2002م.

(84) رئيفة أبو راس، **أدب السلوك والعرفان في الرسالة الصوفية عند ابن عربي وابن سبعين**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلب، 1990م، ص1-274.